معارف
ISSN 1112-7007
EISSN 6804 -2600
المجلد 17/ العدد 1 (جوان 2022): ص.ص: 556- 571

شعر المقاومة في منطقة القبائل إبان القرن التاسع عشر للميلاد

-دراسة سوسيو ثقافية-

Resistance poetry in the kabylian region during the 19th century Interline

ط.د. أمال إدريسي [1] * . أ.د. محمد جلاوي [2]

[1] جامعة البويرة، الجزائر، a.idrici@univ-bouira.dz

[2] جامعة البويرة، الجزائر، djellaouimohamed@yahoo.fr

[1] [2] مخبر الأبحاث الأدبية واللسانية والتعليمية الأمازيغية

تاريخ الاستلام: 2021/10/20؛ تاريخ القبول: 2022/01/05؛ تاريخ النشر: 2022/06/01

ملخص:

قام المجتمع القبائلي بمواجهة المستعمر الفرنسي إبان القرن التاسع عشر بأوجه متعددة من المقاومة، هذا ما دل عليه الشعر القبائلي التقليدي، والذي عثر عليه إما في شكل مخطوطات كتبت باليد كأعمال أمبرت عام 1723، وليام أودغسون1829، أو ما طبع في كتب كأعمال أدولف هانو طو عام 1867.

هذه الأشعار بينت وأبرزت أوجه المقاومة التي كانت إما في شكل حروب وثورات راح ضحيتها الكثير من الأرواح أو في شكل مقاومة إما بالتشبث بالقيم الدينية والمعتقدات والتي تحمي هوية وأصالة الشعب الجزائري، أو المقاومة بقبائلية القبائلي وكل ما يرتبط بهذا المفهوم الذي يملك أهمية بالغة في المجتمع القبائلي كالأنفة، الحرمة والرجولة.

الكلمات المفتاحية: المقاومة؛ العادات والمعتقدات؛ الدين؛ الحروب؛ الثورات؛ الاستعمار؛ المجتمع؛ المخطوطات؛ السوسيو- ثقافي.

* المؤلف المرسل.

Abstract:

In the 19Th century, the kabylian society had resisted the French colinisation in different ways. This has been shown in the traditional kabilyian poetry, that has been discovered in the form of manual scripts like in the works of H. Umbert in 1723, and W. Hudgson in 1829, or what had been printed into books like the works of A. Hanoteau in 1867.

These poems had shown and revealed the different faces of resistance that fell with the period of war and revolutions, in which many souls lost their lives, who resisted inorder to protect the religious values and beliefs that protect the identity of the Algerian people, resistance in the mind of the kabylian and all what is related to this concept, is considered significant in the kabylian society like the raised nose and manhood.

Keywords: resisted, society; religious; revolutions; colinisation; manual scripts; socio-litterature.

المقدمة:

واجه المجتمع القبائلي في القرن التاسع عشر للميلاد المستعمر الفرنسي الغاشم بأوجه مختلفة من المقاومة، وهذا ما يظهر جليا من خلال الشعر القبائلي التقليدي، الذي تضمنته إمّا المخطوطات القديمة المنجزة من قبل أمثال: (أومبرت/W. Humbert، 1723) و(أود غسون/W. Hudgson، 1829) أو ما جاء في شكل مطبوعات مثل أعمال (هانوطو/ A. Hanoteau، 1867).

تبين هذه الأشعار بوضوح أوجه المقاومة، التي كانت إمّا على شكل حروب وثورات ضحى فيها المجتمع بالغالي والنفيس، ودفع الأرواح ثمنا للكرامة، أو على شكل مقاومة دينية وعقائدية والتي ظلت تنادي بدورها للحفاظ على الهوية والإسلام للشعب الجزائري، أو عن طريق التصدي بالقيم العرقية للمجتمع، أو ما يعرف " بقبائلية القبائلي" وهنا لا يقصد بها القبائلية كلغة تخاطب، ولكن ما تتضمنه من مبادئ أساسية وأنماط حياتية متعارف عليها بين أفراد المجتمع تتأسس في جوهرها على مجموعة من أسس تعاملية تضمن العزة والكرامة والأنفة والنخوة للفرد القبائلي.

ولعل من أسباب اختيارنا لدراسة موضوع شعر المقاومة في القرن التاسع عشر

للميلاد في منطقة القبائل ما يعود إلى هذه الخصوصيات لفعل التصدي للغازي من قبل سكان المنطقة لتشكل في نظري النموذج الأمثل لدراسة شعر المقاومة، بما يفصح عنه من أشكال التصدي للعدو، أثبت فيها أبناء المنطقة شجاعة نادرة.

وقد تناول الشعراء في كثير من التفصيل كل هذه الأشكال من المقاومة حتى أولى الباحثون أهمية قصوى لمادتهم الشعرية، ولعل من أبرزهم الباحث سالم شاكر في مقاله الموسوم بـ:

"Une tradition de résistance et de lutte : la poésie berbère kabyle, un parcours poétique".

الذي قال فيه: "تمثل منطقة القبائل الأنموذج الأمثل والمناسب لدراسة شعر المقاومة، اذ تشتمل على حشد كبير من المادة الشعرية الخاصة بتلك الحقبة الزمنية، بحيث تتالت عملية الجمع من الميدان لهذا الطابع الشعري منذ بدأ الغزو الفرنسي: هانوطو/ 1867، بوليفا/ 1904، معمري/ 1980/1968، بن براهيم/1983...جميعهم شاركوا في جمع مادة شعرية غنية، التي يمكن أن تمثل مرجعا رئيسا للباحثين، وتتيح لهم متابعة مراحل الغزو الاستعماري"[(1)]).

وقبل أن نتناول هذه المادة الشعرية بالدراسة والتحليل، أرى من الأجدى أن أقدم في البداية لمحة عن الجانب السوسيو ثقافي للمجتمع القبائلي.

- 1 الإطار التاريخي والسوسيو-ثقافي للمجتمع القبائلي:

بغية فهم أي ظاهرة من ظواهر المجتمع، لابد من العودة إلى الإطار التاريخي والسوسيو-ثقافي لها، ولفهم ظاهرة شعر المقاومة في القرن التاسع عشر للميلاد لمنطقة القبائل، يتحتم علينا وضعها في اطارها، التاريخي لفهم الأحداث والوقائع والسوسيو-ثقافي لفهم تركيبة المجتمع وأبعاده الثقافية والدينية والحياتية.

عاشت منطقة القبائل، في منأى عن التواجد الأجنبي لما يقارب نصف قرن من الزمن، بسبب تضاريسها الوعرة، ومناخها الصعب، وسكانها المتشبثين بهويتهم، وما لهذا المجتمع من نمط حياة متميز يحكمه عرف "تقبيليث"، ويقوم عليه من سلوكات وأفعال

(1) Salem chaker, « Une tradition de résistance et de lutte : la poésie berbère kabyle, un parcours poétique », P. 13.

تنشد الأخوة وترفض الدخيل ، إلى جانب "تجماعيث هذا البرلمان المصغر الذي يتحكم في دواليب المجتمع وينظمه، وأمام هذه الأسباب باءت مرامي المستعمر الفرنسي بالفشل الذريع في كل محاولاته لبسط سلطته على المنطقة، بعد أن وطأت قدمه شاطئ سيدي فرج سنة 1830، ففي كل مرة يلقى مقاومة شرسة بأشكال عدة من طرف الأهالي، وقد أثبت الباحثون ما تحظى به منطقة القبائل من مناعة وشراسة التصدي، مثلما يوضحه الباحث "جلاوي محمد" في احدى مؤلفاته حينما قال: "...منطقة القبائل بطابعها الجغرافي المميز، وبمؤسساتها التنظيمية القبلية الخاصة، تبقى بعيدة المنال عن كل طارق أجنبي يرمي إلى خرق حرمة مقدساتها الأزلية، الموروثة عن الأسلاف منذ عدة قرون خلت"[1]، وظلت المقاومة الشعبية على حالها إلى أن حلت السنة السوداء كما تسمى سنة 1871، حيث تمكن الجنرال "رندون" بعد اعتماده كل الوسائل الحربية اللازمة، وكل السبل والاستراتيجيات المتاحة لإخضاع الشعب الأعزل الذي لا يملك في الأغلب سوى الأدوات التي يعتمد عليها في أعماله الفلاحية، هذا الفرق الشاسع بين الجهتين جعل كفة النجاح تميل إلى الأقوى، فقد كان هذا الجنرال يدرك تماما أهمية هذه المنطقة وتأثيرها على باقي الوطن، كما يدرك جيدا ضراوة المقاومة من أبنائها لما قال: "لو خضعت جرجرة لخضعت الجزائر كلها، وانتهت بذلك كل سبل المقاومة" [2].

فقد أدرك الفرنسيون مدى تحصن قرى منطقة القبائل وبسالة أبنائها في الدفاع عن الأرض والعرض، فتيقنوا من أن إخضاع الجزائر كامن في اخضاع هذه المنطقة وفي ذلك قال ايميل كاري: "ما دام لهيب المقاومة هذا لم ينطفئ، وما دام القبائلي لم يتابع إلى أخر مستقر، وما دامت منطقة القبائل لم تقمع لن يكون هناك لا استقرار ولا أمان في الجزائر"[3]، فكان التحدي الذي يقلق مضجع كل الجنرالات التي تتالت على الجزائر، هي كيفية وضع استراتيجية لقمع هذه المقاومات عن طريق سياسة احتواء منطقة

(1) جلاوي محمد، تطور الشعر القبائلي وخصائصه (بين التقليد والحداثة) ، الجزء الأول-الشعر التقليدي، المحافظة السامية للأمازيغية-2009، الجزائر، ص 272.

(2) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(3) Emile Carrey, récits de kabylie, compagne de 1857, éditions, G, A, L Alger, 2004, p12.

القبائل وإخماد أي سبيل من سبل المقاومة، ليتسنى لفرنسا بذلك بسط نفوذها على الجزائر.

بعد سقوط المنطقة في يد المحتل الفرنسي وجدت نفسها في دوامة لا قرار لها، اذ بدأ المستعمر في استحداث استراتيجيات مختلفة، تسهل له جعل المنطقة تذوب في الكيان الفرنسي، الاّ أنّ ذلك لم يتسن له، حيث بقي أفراد المجتمع القبائلي متشبثين باخر ما بقي لهم، وهي الهوية التي حاول المستعمر طمسها بشتى الوسائل بعد أن سلبهم الأراضي والممتلكات وجند أبناءها في الجيش، ولم يكفه هذا بل وشجع هجرة المعمرين إلى أراضي أهل المنطقة، هؤلاء الذين يمثلون أرذلهم ومنهم من كانوا لصوصا ومجرمين، كما جلبوا اليهود الذين لا ملجأ لهم إلى المنطقة، وملكوهم أراضي ومنازل وأصبح لهم مهن، فأضحوا أسيادا، رغم كل هذا بقي ضمير الفرد القبائلي صاحيا، وغيرته على بلاده وما ألت اليه بمثابة خنجر مغروس في صدره، تجعل من الألم بنزينا يشعل فتيل الشعر، فجادت سجيته بأجمل أشعار المقاومة، وهذا ما سماه "بوحبيب حميد" المواجهة الثقافية في بلاد القبائل غداة الاحتلال[1]، اذ يعتبر تمسك الفرد بهويته وممارستها بكل أبعادها، بما فيها اللغة، العادات والتقاليد، الديانة، والمعتقدات...الخ، شكلا من أشكال المقاومة التي لا يستهان بها، وهذا ما ظهر جليا في أشعار المقاومة، بما تتضمنه من رفض التخلي عن هذا الموروث والانسجام مع الواقع الجديد، وذلك رغم مجهودات فرنسا لتجميله ومحاولة الجذب إليه بكل الوسائل وضمن هذا الوضع الجديد يتصدر الفرد الفرنسي المرتبة الأولى، وتليه فئة المعمرين في المرتبة الثانية، ليحل الفرد الجزائري صاحب الجنسية الفرنسية في المرتبة الثالثة، وأخيرا الطبقة المطحونة من الأفراد المتمسكين بالهوية والسعي إلى التحرر بكل الوسائل البسيطة التي يمتلكونها، والتي لا تتعدى أحيانا نية رفض المستعمر أو التعبير الشعري كشكل من أشكال المقاومة، اذ في كثير من الأحيان تكون الكلمة أقوى من الرصاصة أو حد السيف.

هكذا سالت أودية بشعر المقاومة، فحملت أجمل القصائد وأروعها جمع المستعمر جزءا منها لا لنية علمية، بل لحاجة حربية، بغية فهم سيرورة المجتمع القبائلي

(1) بوحبيب حميد، الغجري الاخير، دراسة نقدية تحليلية لشعر سي محند او محند، دار الحكمة - الجزائر 2007, ص 32.

التقليدي، والإمكان من السيّطرة عليه، ولكنه لم يتوصل إلى مبتغاه رغم كل جهوده ومساعيه، بالإضافة إلى القصائد التي جمعت من طرف بعض الجامعيين لغاية علمية سواء من الفرنسين أو الجزائريين فيما بعد.

- 2شعر المقاومة ودوره في منطقة القبائل:

إنّ الشّعر القبائلي التقليدي، هو شعر وجداني ذاتي، مختلف في كينونته، غني بأنواعه المتعددة، ولعل هذا راجع إلى جمال المنطقة وكونها تزخر بمناظر رائعة تكاد تكون لوحة لأبرع رسام، تنضح بالحياة لدرجة أنها تكاد تتكلم، ولعله أيضا راجع لترابط سكانها فيما بينهم، ورفضهم الذوبان في أي كيان أجنبي، هذا الاتحاد الذي جعل المنطقة لحمة واحدة ومجتمع متجانس وعائلة متكاملة يعرف فيها كل واحد مهامه، حقوقه وواجباته.

ولما أصبح هذا الكيان مهددا من طرف الغازي الأجنبي، أحس أفراد المجتمع بضرورة دق ناقوس الخطر، وأنه بات التمسك بالهوية، الدين والموروث واجب محتوم، ولما كان الشّعر قناة تعبيرية، وأداة فعالة لإيصال خطورة الأمر، جاءت الإنتاجات الحاملة لشعر المقاومة بغزارة، وهنا ولدت أجمل الأشعار التي تمخضت عن المقاومة الشعبية.

وهذا ما نوه إليه "التلي بن الشيخ"، حين قال مبينا محاولات فرنسا دمج الجزائر: "يصور الشّعر الشعبي ملامح فترة الاحتلال الفرنسي بطريقة توضح جوانب الحياة السياسية، الاقتصادية، والاجتماعية التي تعرضت إلى محاولات استعمارية مقصودة تستهدف طمس معالم الثقافة القومية، واحلال ثقافة أجنبية محلها، بغية عزل الشعب الجزائري عن تراثه الثقافي ليسهل بعد ذلك دمجه "[1].

وتجدر الإشارة إلى أن الإنتاج الشعري صاحب كل أشكال المقاومة بصفته الناقل الرسمي لكل الأحداث والأحاسيس التي تخالج سكان المنطقة تجاه هذا المستعمر الذي فرض نفسه بالقوة، بنية تفكيك هذه اللحمة وتهديم بنيانها، والتأثير على ثقافتها الشعبية ونمط حياتها بصفة عامة، فكان دور الشّعر هنا مزدوجا، من جهة يشكل

(1) التلي بن الشيخ، دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة، 1830-1945، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع-الجزائر، 1983، ص 97.

مدونة رسمية للأحداث، المعارك والمقاومات وحافظا لتاريخ المنطقة، كما كان من جهة أخرى وسيلة فعالة في المقاومة، وشحن الهمم لأبناء المنطقة، فكان يشعل فتيل المقاومة، كلما راودها الخمول.

ولابد لنا أن ننوه في هذا المقام بالشّاعر المقاوم الذي لم يكن قابعا في منزله ينقل له ما يحدث، بل كان المحارب والشّاعر معا، ولما كان يروي الأحداث، فهو يرويها كما أنه عايشها ويصف المعارك كما أنه قاتل فيها، فكانت تلك الأشعار تطبعها المصداقية، وتلفها صدق المشاعر وشدة الإحساس، وفيما يلي مقطع ينقل وقائع حملة المارشال بيجو على واد الساحل في شهرماي1847، للشّاعر سي محمد سعيد أو سيد علي أو عبد الله من أيث مليكش، يصف في كثير من اللوعة والأسى ما ألت اليه حالة المداشر والأعراش[1]:

- المارشال أعطى الأوامر Marican yefka-d leɛqud

- ونعلم أنه تجاوز الحدود Maɛlum ixeddem zyada

- تعود بسط نفوذه على الناس Yennum ùef medden lmud

- تلك غايته من مجيئه عندنا S leɛzem ay d-yusa ùer da

- حول كل عرش إلى يهود Kul leɛrc yeqqel d lihud

- لا أحد قدم روحه على الشهادة êed wer yemmut ùef chada

وعن هذا الدور الريادي للشاعر نجد "التلي بن الشيخ" في دراسته يشيد بدور الشّاعر في الثورة الجزائرية حين قال: «لا ينظم شعرا تصوريا يختلق فيه معارك وهمية، أو ينتحل نصرا زائفا، ويتوهم نفسه فارسا يهزم الأعداء، وإنما كان الشّاعر الذي يخوض المعارك بسيفه، ويسجل الانتصار بأمانة، مثلما يصف الهزيمة بألم، وحسرة، فيحدثنا عن الأبطال بطريقة تجعلنا نحس بنبل المشاعر، وحرارة العاطفة، والابتعاد عن الروح الذاتية، وقد وجدت الطبقات الشعبية في الأدب الشعبي تصويرا لجراحها، وتعبيرا عن

(1) جلاوي محمد، أشعار شعبية من قبائل جرجرة (قراءة نقدية في كتاب هانوطو) ، منشورات زرياب، 2001، ص50.

آمالها، وأمانيها، فتناقلته الألسنة، وحفظته الذواكر الشعبية، وغدا ترديده يذكي الحماس، ويبعث النخوة ويوقظ الوعي الوطني"[1].

مثلت حقبة النصف الأول للقرن التاسع عشر، رمزا للمقاومة بكل أشكالها، وتجلى ذلك من خلال أجمل القصائد والأشعار التي نظمت وسط أرض المعارك والقتال ونقلت بكل شفافية ومصداقية، تاريخ شعب ناضل بكل شراسة دفاعا عن أرضه وعرضه فكما قال "جلاوي محمد": "الأحداث الكبرى التي عاشتها منطقة القبائل بالخصوص تمثل احدى العوامل الأساسية التي فجرت قريحة الشعراء بإنتاجات شعرية ثرية ومتنوعة، والتي تمكنت من نقل وبشكل أمين أحاسيس الرفض والتمرد التي يكنها المجتمع القبائلي حيال هذا الدخيل الأجنبي"[2].

هذه الأشعار التي روت الأحداث البارزة وسايرت سيرورتها، منذ أن وطئت أقدام الفرنسي أرض الجزائر، ننتقي قصيدة الإستيلاء على الجزائر، للشّاعر الحاج أعمر أولحاج من مشدالة[3]:

- أيتها النفس أبعدي عنك السبات! Ay ixef-iw kker ur ggan
- أي شيء يستحسن بالثبات؟ Ac aka yelhan?
- كيف تنقادين للنوم؟ Amek ar akyeùver yiveû?
- العباد في تعداد الأموات Leɛbad fnan
- أيها القادر أطفئ النيران Sens-ed ay uzmir times
- على يوم شهد مجيء النحس Γef wasmi d-yeffeùuqerûan
- الفرنسي ذو البأس Afôansis yeqwan
- كل ماله من أقوام جمعت Iêecd-ed leonus-ines
- ذهب الأتراك من دون خلس Tura haten ɛezben s iùnan

القصيدة تصور احتلال بلاد الجزائر، ومقاومة الأهالي للمحتل بكل شجاعة

(1) التلي بن الشيخ، المرجع السابق، ص 39-40.

(2) جلاوي محمد، تطور الشعر القبائلي وخصائصه (بين التقليد والحداثة)، المرجع السابق، ص 274.

(3) جلاوي محمد، أشعار شعبية من قبائل جرجرة (قراءة نقدية في كتاب هانوطو) ، المرجع السابق،ص45.

ورجولة، ثم كيف عمّت الأحزان البلاد جراء الاحتلال وممارساته الوحشية الفظيعة في حق الأهالي الأبرياء، وتعتبر القصيدة من هذه الناحية وثيقة متميزة حيث تنقل أحداث سقوط الجزائر، تخلي الأتراك عن الأهالي ومغادرتهم البلاد، وعن حزن الأهالي على الحالة التي ألت اليها البلاد، وكيف أن هؤلاء الدخلاء جلبوا معهم النحس.

ومن شدة اتقان الشّاعر وصف المعارك والأحداث ونقلها بكل دقة، يرى "جلاوي محمد" أن الشاعر بهذا الوصف الدقيق يقلب السمع بصر وكأننا نعايش الأحداث لحظة بلحظة اذ يقول: " الشّاعر القبائلي يجيد الوصف والتصوير لما يحدث من حوله من وقائع، لا سيما ما يتصل بالحروب والمعارك، إلى درجة يستطيع أن يقلب بوصفه السمع بصرا، ويجعلنا نعيش وجدانيا الواقعة من جديد، ونحس بغور مأساتها التي يندى لها الجبين، وتقشعر لرهبتها الأبدان[1]".

صمدت منطقة القبائل وقاومت العدو بكل جرأة وبسالة، رغم عدم التكافؤ البارز بين الكتلتين، فقد تفوق العدو في العدة والعتاد بشكل رهيب، هذا مالم تألفه المنطقة باعتبارها لم تخض غمار مثل هذه معارك ولم تجابه مثل هذه القوة، وعن هذا التباين في العدة والعتاد قال سالم شاكر: " أدرك سكان المنطقة الذين احتموا بجبالهم أن هذه المرة بات الأمر مستعصيا في مواجهة هذا الغازي الذي يملك أسلحة غير مسبوقة النظير في المقاومات السابقة، حيث أن منطقة القبائل لم تخض غمار حرب شرسة وكبيرة منذ القدم، ولم تدخل ضد الغزاة، حتى الأتراك الا في معارك على شكل اشتباكات متفرقة، يقوم بها عدد قليل من رجال القبائل لا يتجاوز على العموم بضع مئات. وبوصول المستوطن الفرنسي أضحوا أمام حرب من طبيعة أخرى، لا يعلمون شيئا عنها، كلفتهم خسائر مادية وبشرية لم يسبق لها مثيل في سجل التجارب السابقة"[2].

ولإبراز وصف الشاعر لهذا العتاد الحربي الجديد الذي لم تعرفه المنطقة نستدل بهذه القصيدة، التي وصف فيها الشاعر خضوع منطقة القبائل بعنوان:

(1) جلاوي محمد، تطور الشعر القبائلي وخصائصه (بين التقليد والحداثة) ، المرجع السابق، ص 292.
(2) Salem Chaker, Op.Cit, PP. 14-15.

خضوع عام لمنطقة القبائل 1857، للشاعر الحاج محمد بشير[1] :

أبدأ قص الحدث بالصدق D lqeûûa at-tebduù s nûeê

عن يـوم عيـد الفطر Γef wass n lɛid ameéan

حين بدأ الفرنسي زحفه D afôansis mi d-iserreê

فاق عدّا أسـراب الزرزور Γleb n ééeôéur yeqwan

إلى بني يراثن للقتـال S iyiraten ad inavaê

بقيـادة اللـواء والمشيـر Lekmandat d maôican

المدفع بدأ الجلجلة والشخير D lmedfeɛ ɛyebd’ asrireê

والرصاص كوابل الأمطار D ôûas am lehwa yeqwan

غابت عنا شفاعة الأولياء Ay fell-aù ùaben ûûellaê

بن أعراب ذو قوة واقتدار A ben aɛôab bab n lbeôhan

أبعد من طرف الأشـرار Staxôen-t-id imeqsaê

ولم نعرف له قـرار Anida is-bedlen amekan?

وفي هذه المقطوعة، يصف الشّاعر مجيء الجيش الفرنسي بالزحف، وكأنه الطوفان يأتي على الأخضر واليابس، وزرع الخوف في نفوس الأهالي متوجسين شرا على يد هذا الدّخيل، ومن كثرتهم شبههم الشاعر بسرب الزرزور، وكثرة العدة والعتاد من مدافع ورصاص، غيبت عن السكان الشفاعة وحلت عليهم كل أصناف الشرور .

برز هذا الرفض الصارخ للكيان الأجنبي أيضا في فترة الانتداب العثماني، وهذا ما أشار اليه "أرزقي فراد" حين قال: "كانت العلاقات بين أهل الزواوة والحكام الأتراك العثمانيين متوترة، وعليه فان فترات الصلح كانت حالات مؤقتة، وهذا بسبب تعلق السكان بحريتهم وقوانينهم العرفية، ورفضهم مبدأ دفع الضرائب للإيالة، وباءت كل

(1) جلاوي محمد، أشعار شعبية من قبائل جرجرة (قراءة نقدية في كتاب هانو طو)، المرجع السابق، ص86.

محاولات الأتراك العسكرية الهادفة إلى إخضاع السكان بالفشل بسبس وعورة الجبال وتحصن أهلها وتحصن أهلها في قرى منيعة، ولم تحقق سياسة الأرض المحروقة...م كانت تصبو اليه من استسلام السكان"[1] ، إلا أنه من هول ما رأى الفرد القبائلي بعد مجيء فرنسا بات يترحم على أيام العهد العثماني في الجزائر، وهذا المقطع لشّاعر علي أوفرحات من بوهينون حول تمرد اعمراون سنة 1856، عينة على هذه الأحاسيس بكون العهد العثماني أرحم من هذا المتغطرس الفرنسي[2]:

في عهد الباشا كنا في أمن Yella bac-aùa nerbeê

وإذا بنا ننزل عليه اللعنات Nekwni ar as-ndeɛɛu

كان لين الطبع في حكمه Yeêkem s lleɛb unecôaê

وبيته بيت جود وخيراتAxxam-is yugar seksu

سليط اللسان أحيانا Iles-is ùer madden yeqseê

لكنه منصف يعلو على الهفواتAr yezzaraz iɛeffu

وهذا أيضا مقطع أخر يصب في نفس السياق، من قصيدة عشنا المظالم، للشاعر الحاج سعيد نايث عامر من اغيل الماد، قبيلة ايث زمنزر، أيث عيسي:[3]

عشنا الكثير من الظلم والقهر Xirella lbaîel i wumi neêveô

وأصبحنا غرضا للاحتقار Nusa-d nettaêqeô

عيناي بالدم جودا Ay ié-iw idim yefna

الجزائر لما كانت في عز قدر Γef lzzayer asmi taɛmeô

(1) أرزقي فراد، المجتمع الزواوي في ظل العرف والثقافة الإسلامية (1749-1949) ، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، السنة :2011/2010، القسم الأول، تحت اشراف الدكتور أرزقي شويتام، جامعة الجزائر، ص 45-46.

(2) جلاوي محمد، أشعار شعبية من قبائل جرجرة (قراءة نقدية في كتاب هانوطو) ، المرجع السابق، ص66.

(3) جلاوي محمد، تطور الشعر القبائلي وخصائصه (بين التقليد والحداثة) ، المرجع السابق، ص58.

الأتراك فيها كالأسود الضواري Aîeôki d nnabeô

شيدوا القلع ووفروا العـتاد Mkul lbaro s lêuma

وفيما يخص أيضا إبراز دور الشّعر والشّعراء في هذه الفترة فقد تعددت واجهات وقنوات المقاومة الثقافية للوجود الاستعماري بمنطقة القبائل بتعدد أبعاده ومكوناته الحضارية، حيث اندمجت كل مكونات المجتمع القبائلي في مواجهة الدخلاء، حفاظا على كرامة الأفراد وحريتهم. وانبرى السكان والأهالي يدافعون عن وطنهم لتحريره من قبضة المستعمر، كل من منطلق مقدوره، ليتحد المواطن البسيط مع رجل السياسة والمثقف في حركة نضالية غاية في التناسق أججتها نهضة إبداعية وفنية أسهمت بمختلف أشعارها، في خلق شعور وطني وحماس عالي للذود عن استقلال البلاد وعزتها.

وكان للشّعر القبائلي، على غرار المجالات الإبداعية الأخرى، إسهام بارز في استنهاض الهمم وحثها على الصمود في وجه الغازي الأجنبي، خاصة بمنطقة القبائل، حيث إن الشّاعر القبائلي واكب بقريحته الأحداث المؤلمة التي عاشتها المنطقة والبلاد عامة خلال فترة الاحتلال الفرنسي، وشارك في توثيقها وتأريخها من خلال قصائد مؤثرة جاءت في الصميم، انتقلت شفهيا من جيل إلى جيل، لتروي وتوثق تاريخ شعب بأكمله عانى الويلات للحصول على الحرية والانعتاق.

وفي هذا الصدد يقول الباحث "أحمد عصيد" في حديث له لوكالة المغرب العربي للأنباء، بمناسبة الذكرى الخمسين للاستقلال، إن "الشاعر الأمازيغي كان موثقا ومؤرخا للعديد من الأحداث التي شهدتها فترة الاستعمار، وكان وصفه للمعارك دقيقا وجميلا يمزج بين الظواهر المادية كالخيل والغبار والمدفعية والرصاص والجنود، وبين الوصف الرمزي للنفسيات والمشاعر والذهنيات". وأشار إلى أن الخصائص الابداعية التي كانت تميز شعر المقاومة الأمازيغي من قوة عبارته وشدة وقعها جعلت منه شعرا حماسيا يشحذ الهمم، بحيث ساهم بشكل كبير في التحريض والتحامل ضد الغازي الأجنبي.

- كما أظهر الشّاعر القبائلي من خلال غزارة إنتاجه الشعري قوة ارتباطه بالوطن والتحامه مع الأهالي في قضية مصيرية تتعلق بوجوده وهويته، فهو الصوت المقاوم الذي تجتمع عليه مختلف فئات المجتمع من أجل خلق درع منيع للتصدي للغزو الأجنبي، وهو الحامي لهوية الوطن الثقافية الحضارية وحمايتها من الانصهار في ثقافة الآخر، ولا يخفى

على أحد تعلق الفرد القبائلي بدينه، بحيث نجده دائم الاستعانة بالله في كل أموره، عاملا بما يدعو اليه، رافضا لما نهى عنه، وفيما يلي مقطع يبرز قداسة الدين الإسلامي عند الفرد القبائلي، من قصيدة "حملة المارشال بيجو على واد الساحل 1847 "، ترجمة "محمد جلاوي[1]":"

Lislam ooan-d lɛahud الإسلام أقر العهد والعهود

ôebbi yumeô-d leohada - والرب أمر بالجهاد

Imi aôumi nxedm-it ما دومنا في خدمة المسيحي

Tura ur aù-banent i snat فقد خسرنا الدنيا والآخرة

Ddin n nnbi nezzenz-it دين النبي أقدمنا على بيعه

وكذلك قصيدة "اغيل حماد" للشّاعر محمد سعيد نايث الحاج، من قرية ثالة أنتزارت الذي يبدأ قصيدته بالسلام على النبي ومناداة الخالق والتضرع اليه بحق الرسول والصحابة، لينجيه من كل مصاب فيقول[2]:

ûlaî ùef -k a nnbi la ɛdad الصلاة على النبي بلا عد

Ay agellid wer neîîis أيها الخالق دائم اليقظة

Deɛɛaùk-in s at lmiɛad أتضرع اليك بأهل الميعاد

D ôsul d imeddukal-is وبالرسول والصحابة

ɛfu-yi ma day nugad عافيني من كل المخاوف

W’iblan a llah tɛelmev-yis المذنب أنت عالم به يا إله

وتكاد لا تخلو جميع أشعار المقاومة عن مقدمة ذكر الله والصلاة على نبيه وأصحابه الأشراف ثم تبدأ القصيدة بسرد المضامين.

(1) جلاوي محمد، تطور الشعر القبائلي وخصائصه (بين التقليد والحداثة) ، المرجع السابق، ص290.

(2) جلاوي محمد، أشعار شعبية من قبائل جرجرة (قراءة نقدية في كتاب هانوطو) ، المرجع السابق، ص130.

الخـاتمة

ارتبط الشّاعر الشعبي القبائلي دائما بقضايا بلاده وأمته فقاسمها الأفراح والأتراح، وأسهم بشعره في نصرة القضايا الوطنية والإنسانية العادلة، لاسيما في الفترات الصعبة التي مرت بها الأمة الجزائرية، فانبرى الشّعراء الشعبيون في كل البلاد إلى تنظيم الصفوف وتجنيد الناس لمحاربة المحتلين وحمل السكان والأهالي على التضامن ووحدة الصف والمشاركة في تمويل المقاومات ونصرتها.

وبذلك أدى الشّاعر الشعبي القبائلي دورا إعلاميا مهما في هذا المجال نظرا لغياب وسائل الاتصال والإعلام المتطورة في ذلك الوقت، كما قام برصد مختلف الأحداث التي شهدتها المنطقة، بل وسجّلها في الذاكرة مما يمكّننا من اعتماد بعض الأشعار الشعبية كوثيقة تأريخية لبعض الأحداث المهمة التي شهدتها البلاد، كون الشّاعر الناقل الأمين لكل الأحداث والوقائع وكونه المحارب والمقاوم، ماجعل هذه الأحداث والوقائع المنقولة تتسم بالشفافية والمصداقية.

- ويتميز شعر المقاومة بعاطفته الوطنية الغامرة وغيرته الدينية بالإضافة إلى دقة المعلومات التاريخية التي يتضمنها، ومن هنا فهي ليست مجرد نص لتمجيد المقاومة بل أيضا نص تاريخي اجتماعي يشهد بمدى مأساة السكان المحتلين وهمجية المحتل الغاشم.

وعموما لقد ظل الشّاعر الشعبي، وفي مختلف المقاومات الشعبية الجزائرية، يتغنى بالأبطال والانتصارات ويتجاوب مع الأحداث الكبرى التي تمر بها البلاد، فكان يسارع إلى تسجيلها وتخليدها، فقد وصلتنا الكثير من القصائد أرخت للمقاومات الشعبية مثل مقاومة بوبغلة أو الشيخ بوعمامة أو لالة فاطمة نسومر.... الخ، هذه الأشعار التي ظلت وستظل تروي للأجيال الحاضرة واللاحقة تاريخ شعبهم بكل التفاصيل، وتحفظ كل الوقائع والأحداث.

- وتبقى هذه الأشعار بحاجة إلى المزيد من دراسات تكون وافية ومستفيضة، ومهما قيل عن أشعار المقاومة، ومهما قيل عن دور الشاعر في تخليد الأحداث والوقائع، فيظل ناقصا يحتاج إلى مزيد من الدراسات والأبحاث أكثر ايغالا وتفصيلا.

المراجع

المراجع العربية:

1- أرزقي فراد، المجتمع الزواوي في ظل العرف والثقافة الإسلامية (1749-1949)، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، السنة :2011/2010، القسم الأول، تحت اشراف الدكتور أرزقي شويتام، جامعة الجزائر.

2- التلي بن الشيخ، دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة، 1830-1945، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر،1983.

3- بوحبيب حميد، الغجري الاخير، دراسة نقدية تحليلية لشعر سي محند او محند، دار الحكمة - الجزائر 2007.

4- جلاوي محمد، أشعار شعبية من قبائل جرجرة (قراءة نقدية في كتاب هانوطو)، منشورات زرياب، 2001.

5- جلاوي محمد، تطور الشعر القبائلي وخصائصه (بين التقليد والحداثة)، الجزء الأول-الشعر التقليدي، المحافظة السامية للأمازيغية-2009، تيزي وزو، الجزائر.

6- فوزي العنتيل، بين الفلكلور والثقافة الشعبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة 1978.

7- نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط3 (طبعة منقحة ومزيدة).

المراجع الأجنبية:

1-A. Ameziane, *Tradition et renouvellement dans la littérature kabyle*, thèse de doctorat, langues, littérature et société, INALCO, Paris, 2008-2009.

2- Abd Allah Bounfour, introduction à la littérature berbère, 1-la poésie, Ed, Peeters, Paris, Louvain, 1999.

3- Abdennour Jebbour, *Elmi ɛjem eladabi*, Dar Elɛilm, Beyrouth, 1979.

4- B. Didier, *Dictionnaire universel des littératures*, *PUF*, Paris.

5- (B.), Hamri, *La poésie amazighe de l'Atlas central marocain : approche culturelle et analytique*, thèse de Doctorat, sous la

direction de M. Taifi, université Sidi Mohamed Ben Abdellah, Fès, Maroc, 2005.
6- Emile Carrey, récits de Kabylie, compagne de 1857 éditions G, A, L Alger, 2004.
7-(J.) Demougin, *Dictionnaire historique, thématique et technique des littératures*, littératures françaises et etrangeres, anciennes et modernes, Larousse, Paris, 1989.
8-Jaune Louis Calvet, *La tradition orale*, PUF, Paris, 1984.
9-J. M Dallet, Dictionnaire *kabyle-français*, Ed SELLAF, Algr.
[1]0-Mohamed Djellaoui, *Tiwsatin timensayin n tmedyazt taqbaylit, Les genres traditionnels de la poésie kabyle* : 2007.
11-M. Jarrety, *lexique des termes littéraires*, LGF, Paris, 2001.
12-Mouloud Mammeri, poèmes kabyles anciens, Ed. Maspero, Paris, 1965.
13-Salem Chaker, « une tradition de résistance et de lutte : la poésie berbère kabyle, un parcours poétique ».
14-Souhail Idris, *Elmanhel, français – arabe*, Alger, Bayrouth, 1999.
15-Pierre Galland-Pernet, « Tradition et modernisme dans les littératures », in actes du Premier congrès d'études des civilisations méditerranéennes d'influence arabo-berbère, SNED, Alger, 1973.
16-Pole Zumthor, *Introduction à la poésie orale*, Ed, Du Seuil, Paris, 1983.